المحور الثاني: ردود الفعل الموريتانية تجاه الاحتلال الفرنسي– مقاومة ماء العينين–.

المحاضرة الثالثة: مراحل المقاومة العسكرية الموريتانية للاحتلال الفرنسي 1903–1934م.

1 – أسباب المقاومة العسكرية الموريتانية للاستعمار الفرنسي:

قبل أن نتطرق إلى المقاومات التي اندلعت بموريتانيا جراء الاحتلال الفرنسي لها يلزمنا أن نشير إلى الأسباب التي أدت إلى هذه المقاومة التي قام بها الشعب الموريتاني.

إن الأسباب الحقيقية التي دفعت أغلب الشعوب التي تعرضت للاستعمار لخوض كفاح مسلح ترجع أساساً إلى التخلص من السيطرة الاستعمارية والاستبداد والسعي لنيل الحرية واسترجاع السيادة المسلوبة منها، إضافة إلى كل هذه الأسباب هناك أسباب اختص بها المجتمع الموريتاني وتتمثل فيما يلي:

أ– الأسباب السياسية:

ظهرت المقاومة العسكرية الموريتانية كتعبير عن رفض الوجود الفرنسي الغريب عن المنطقة، حيث كانت المناطق الشمالية قبل الغزو الفرنسي محمية بواسطة سياسية تمكنت من بسط نفوذها على كافة تراب المنطقة، كما أخضعت كافة المجموعات الموجودة في المنطقة عند دخول الاستعمار إلى المناطق الموريتانية الأخرى، مع العلم أن السلطة السياسية كانت في يد بعض الزعماء التقليديين الذين سارعوا للثورة خوفاً من سياسة السلب التي اتبعتها الإدارة الفرنسية في بعض المنطقة الموريتانية وأيضا ظهرت كتعبير عن رفض الاستبداد والتطلع للحرية.

ب– الأسباب الاقتصادية:

يعتبر السبب الاقتصادي؛ من بين أهم العوامل التي شجعت فرنسا على إحتلال موريتانيا، حيث عملت منذ دخولها إلى المنطقة على استنزاف ثروات البلاد وخيراتها خصوصاً تلك المتواجدة في المناطق الشمالية للبلاد المعروفة باحتوائها لعدد كبير من الواحات الزراعية والرعوية. الأمر الذي جعل المستعمر يأمل بالحصول عليها لأهميتها الاقتصادية وموقعها الاستراتيجي، وقد فرضت فرنسا على موريتانيا أن تقوم

بتسيير الموارد الاقتصادية قصد تغطية نفقات الإدارة لذلك تأكد السكان أنه لابد من مقاومة المستعمر محافظة على اقتصادهم.

كما أن الموريتانيون تخوفوا من تزايد النشاط التجاري الفرنسي في المنطقة خصوصاً بعد ظهور بعض السلع الأوروبية المنافسة للسلع المحلية، كما أدى أيضا تزايد النشاط التجاري الفرنسي والأجنبي بصفة عامة إلى ظهور بعض المراكز التجارية الجديدة (الأجنبية) التي استقطبت بعض التجار المحلين وأيضاً بداية ظهور بعض الطرق التجارية الجديدة والتي بدورها هددت بزوال بعض الطرق التجارية المحلية المعروفة لدى الموريتانيين، وأيضاً هذه الأوضاع هددت بزوال بعض المراكز والمدن التجارية التي كانت تقع على مشارف الطرق التجارية؛ لذى ظهرت فكرة مقاومة المستعمر من أجل الحفاظ على الاقتصاد المحلي الموريتاني.

ج- الأسباب الدينية:

بسبب دخول الاستعمار الفرنسي الأراضي الموريتانية؛ سارع الموريتانيون في الالتفاف حول أمرائهم وزعمائهم الدينيين خوفاً من انتشار التيار المسيحي وللحفاظ على الدين الإسلامي وإعلاء راية الجهاد ضد الكفار.

2 – مراحل المقاومة العسكرية الموريتانية للاحتلال الفرنسي 1903 – 1934م:

منذ مطلع القرن 19 و20م وبعد إعلان اتّفاقية الحماية تصاعدت عمليات الإخضاع العسكري منذ عام 1905م فيما رافقت الكفاح المسلّح مقاومة اجتماعية واقتصادية كانت قائمة على رفض التّعامل مع المستعمر، وقد سخّر علماء البلاد أقلامهم وخطبهم لشحذ الهمم والعزائم ضدّ المستعمر. وخلال هذه الفترة ظهرت شخصيات وطنية قادت الكفاح المسلح ضد الوجود الفرنسي، أمثال "محمد الحبيب (1829-1860م) و"الشيخ سيدي الكبير" (1776-1868م) والّذي دعا إلى وحدة الإمارات والمشايخ لمواجهة التّغلغل الفرنسي، "أحمد بن الديد ولد عساس" و"بكار ولد أسوف أحمد" و"سيدي أحمد ولد عبده"، وغيرهم.

ويمكن تقسيم تاريخ المقاومة العسكرية الموريتانية للاحتلال الفرنسي إلى مرحلتين هما:

أ- المرحلة الأولى 1903 – 1909م:

تميزت هذه المرحلة بظهور مقاومة عسكرية منظمة، عملت على التصدي وإعاقة التوغل الاستعماري الفرنسي في المنطقة، حيث تم خلالها عقد تحالفات سياسية مهمة بين أمير تكانت "بكار ولد

أسويد أحمد" وأمير البراكنة "أحمد ولد سيد اعلي"، بهدف صد الاحتلال الأجنبي وإعاقة التقدم الفرنسي داخل البلاد.

ومن أهم هذه المقاومات ما يلي:

1 – مقاومة بكار ولد أسويد أحمد أمير تكانت 1904– 1905م:

لقد عرف أمير تكانت بكار ولد أسويد أحمد منذ بداية سنة 1904م بتزعمه للحركة المعادية للفرنسيين في موريتانيا، وهي الحركة التي ستتسع عندما تأخذ طابع الجهاد وذلك بكسبها للكثير من الأنصار داخلياً وخارجياً.

بدأت هذه المقاومة بعد إغارة "بكار" على مركز فرنسي ببلدة "ميت" في شهر فبراير 1904م؛ ضمن منطقة البراكنة أين حقق مجموعة من الانتصارات؛ إلا أنه تكبد خسائر بشرية ومادية بسبب عدم التكافؤ بين الطرفين، مما أدى به في أواخر 1904م إلى الانسحاب إلى منطقة "أفطوط" التي أصبحت مركزا لقوات المقاومة (البراكنة، تكانت، آدرار).

ورغم الانتصارات التي حققتها المقاومة في تكانت، إلا أنها لم تتمكن من تحقيق النصر النهائي حيث أن الفرنسيون تمكنوا من ملاحقة فلول المقاومة إلى منطقة **"أفلة"** وقامت بقتل الأمير "بكار" في يوم 1 أفريل 1905م ومن النتائج السلبية لمقتل الأمير ما يلي:

- ✓ تفرق قوة "إدوعيش" ومصادرة الكثير من أملاكها من طرف الفرنسيين (الحبوب والأغنام).
- ✓ إعلان بعض القبائل التي كانت تقاتل مع الأمير خضوعها للاحتلال الفرنسي.

وبقدر ما تعتبر موت بكار انتكاسة حقيقية للمقاومة، إلا أنها في نفس الوقت كانت سبباً كافياً لوحدة الكثير من الموريتانيين الرافضين للإستعمار. فخلال هذه الفترة كان هناك استعداداً قوياً من طرف جُلّ القبائل الموريتانية لمواجهة الاستعمار، ووقف انتصارات كبولاني.

2– مقاومة ماء العينين (إقليم آدرار) 1905 – 1909م:

هو زعيم الطريقة القادرية الفاضلية؛ كان له نفوذ في منطقة آدرار، استقرّ في السّاقية الحمراء في الأراضي الخاضعة للنفوذ الإسباني. بدأت مقاومته في إقليم آدرار بعد أن قام في شهر ماي 1905م، بدعوة جميع القبائل الموريتانية وأتباعه ومريديه إلى إعاقة التقدم الفرنسي في البلاد وفي نفس الوقت تعهد

بتأطير الجهاد والمشاركة فيه إلى جانب أبنائه الذين لعبوا دوراً كبير في المقاومة (سيدي الهيبة، الشيخ الوالي، الشيخ محمد لقطف أدوار).

كان الشّيخ ماء العينين يكتب إلى كافّة الزّوايا الموريتانية يطلب منهم حمل السلاح لوقف الزّحف الفرنسي ووجدت دعوته صدى وخاصّة في آدرار، ولم يقتصر نشاطه على النّاحية المعنوية فقط بل كان يزوّد القبائل الأخرى بالسّلاح وقد استفادت قبائل عديدة من هذا السلاح في "تكانت" والّتي سبق أن أعلنت خضوعها لكبولاني قبل وفاته فاستغلّت الظّروف ورجعت في تعهّداتها.

بعد إعلان الشيخ "ماء العينين" الثورة؛ استغل نفوذه لدى سلطان المغرب "عبد العزيز" وطلب الحصول على المساعدات والدعم العسكري، وبالفعل استجاب السلطان المغربي لطلب "الشيخ ما العينين" حيث أرسل السلطان حملة بقيادة ابن عمه الأمير "مولاي إدريس" إلى تكانت في شهر ماي 1906م، من أجل تخليصها من الاحتلال وبعد وصول هذا الأخير تمكن من تحقيق انتصار كبير في معركة "النيملان" 25 أكتوبر 1906م- الواقعة جنوب غربي تجكجة-، تكبدت فرنسا بقيادة الجنرال المعروف والمشهور "غورو" من خلاله خسائر جسيمة، وهذا الانتصار ساعد على تقوية الروح القتالية لدى الموريتانيين وأيضا تمكن السلطان من جمع أزيد من 3000 رجل دعم بهم صفوف المقاومة.

وبسبب تزايد النفوذ المغربي بالمنطقة؛ سارعت السلطات الفرنسية للضغط على السلطان المغربي من أجل الكف عن تقديم المساعدة للمقاومين الموريتانيين، وفي ظل هذه الظروف تزايد الطلب على السلاح والمؤونة في صفوف الثوار، فاضطر "الشيخ ماء العينين" للسفر شخصياً للمغرب من أجل الحصول على السلاح.

وبعد أن حقق الشيخ مبتغاه (حصوله على بعض الأسلحة)، عاد إلى موريتانيا أين تمكن من تحقيق بعض الانتصارات على القوى الفرنسية مثال ذلك: "تيفوجار" في 26 ديسمبر 1908م، و"أماطيل" في 30 ديسمبر 1908م.

وفي هذا الإطار كتب الجنرال "غورو" قائد الحملة يقول: "... إن الدخول الاستعماري في بلاد البيضان كلف الكثير من المجهود والدم ... إن حملة آدرار تعتبر من أقسى وأصعب حملاتنا الإفريقية...".

وقد أصبح للشّيخ "ماء العينين" سيطرة روحية وعسكرية على المنطقة الصّحراوية الواقعة في شمال موريتانيا وجنوب الصّحراء الغربية، ويلاحظ أنّه تلقى مساندة من القوى الأجنبية إذ كانت السّفن الألمانية والإسبانية واليونانية تزوّده بالأسلحة واتّصاله بالسّلطان العثماني كلّ هذا أزعج السّلطة الفرنسية.

بنى "غورو" حصنا في "أكشوط" عام 1908 وقد أثار بناؤه "أحمد ولد عيدا" فقام بتهديده وأغار عليه، كما أرسل ماء العينين قوّاته فهاجمت الفرنسيّين في "دامان" جنوب هذا الحصن، وأعلن ابنه الشّيخ "حسان" الجهاد ضدّ الفرنسيّين والمسلمين المتعاونين واشتدّت الإشتباكات مع ماء العينين، وكان لابدّ لفرنسا من اتّخاذ خطوات حاسمة للقضاء عليه، وسرعان ما تمكنت القوى الفرنسية رغم الهزائم التي تلقتها على يد الثوار الموريتانيين؛ من اجتياح مدينة "أطار" عاصمة آدرار في الشمال الغربي في 9 جانفي 1909م، وتراجعت قوّات ماء العينين، فاضطرّ هذا الأخير إلى الانسحاب إلى الصّحراء الغربية، وهذا ما أدى إلى تفكك القبائل وموالاة بعضها للاستعمار الفرنسي. لكن ورغم هزيمته إلاّ أنّه استمرّ في الجهاد وسار إلى فاس وتغلّب على القائد الفرنسي في "تادلة" عام 1910 ولكنّه توفّي في نفس العام.

ويمكن تفسير هذه الوضعية بأن منطقة آدرار كانت تعرف وقتها أزمة جفاف حاد تسببت في تقلص المراعي إلى حد كبير، وتدهور أعداد الماشية، وهو ما كان مناسباً لشل فاعلية تضامن القبائل المعادية للفرنسيين التي كانت تعاني في نفس الوقت من أزمة غذائية أدت إلى إحداث مجاعة كبيرة في أوساطهم، مما أجبرهم في نهاية المطاف إلى النزوح نحو الجنوب، طلباً للانتجاع وبالتالي يرتمون في أحضان السلطات الاستعمارية.

تأثرت المقاومة الموريتانية في هذه المرحلة نتيجة لأسباب أهمها:

1 – قبول محمد ولد الخليل الرقيبي للحماية الفرنسية في 22 سبتمبر 1909م.

2 – وفاة الشيخ ماء العينين في 18 أكتوبر 1910م.

3 – أسر الأمير سيد أحمد أمير آدرار في 13 جانفي 1912م.

وهذا نظراً للدور القيادي لهذه الشخصيات ومكانتها الكبرى التي حيت بها في التاريخ الاجتماعي والعسكري للمنطقة.

ب– المرحلة الثانية 1909 – 1934م:

اتسمت هذه الفترة بكثرة العمليات التخريبية ضد الأهداف الفرنسية؛ رغم التفوق الفرنسي، كما تميزت المرحلة أيضا بظهور معارضة في أوساط القبائل الزاوية تجاه النصارى، حيث أعلن "محمد العاقب ولد مايابا" أنه من الواجب الديني عدم التعامل مع النصارى ودعا أيضا للهجرة إلى الديار المقدسة.

كما تميزت المرحلة بظهور مقاومة سلمية في **منطقة الحوض** في الجنوب الموريتاني، بقيادة "**الشيخ حماه الله**"، أما منطقة الجنوب الغربي من البلاد وبالتحديد في منطقة "**كيدي ماغا**" قد شهد ظهور وانتشار مقاومة عنيفة استهدفت تسميم الآبار وحرق المراعي في وجه الغزاة ومواشيهم بقيادة "**قاد إبراما**" (**إبراهيم**).

كما عرفت هذ المرحلة وفاة "الشيخ ماء العينين" في 28 أكتوبر 1910م وهذا ما أضعف المقاومة وظهور مجموعة من الصعاب أمام المقاومين، لكن رغم ذلك فالمقاومة استمرت تحت قيادة "أحمد الهيبة ولد الشيخ ماء العينين" الذي بدوره استطاع تحقيق انتصارات ملموسة خصوصاً في شمال "**أطار**" في 10 جانفي 1913م.

والملاحظ أن المقاومة بدأت تضعف شيئاً فشيئاً، ومرد ذلك يرجع للسياسة الفرنسية المطبقة في المنطقة خصوصاً غلق الحدود الجزائرية–المغربية أمام المقاومة وقطع الإمداد وأيضاً إلى عدم استجابة القبائل الموريتانية لنداء الجهاد الذي وجهته أسرة ماء العينين، ومن بين العوامل أيضاً إسراع بعض القبائل الموريتانية إلى طلب الأمان من السلطات الفرنسية مثل: قبيلة الركيبات سنة 1933م، وهذه الظروف وأخرى ساهمت في تسليم "أمر بيه رب ولد الشيخ ماء العينين" نفسه للسلطات الإسبانية في 7 أفريل 1934م، وهو ما يعتبر بداية مرحلة الاستقرار الفعلي للاستعمار الفرنسي بموريتانيا والتي ستعمل بدءا من هذا التاريخ على إرساء نظامها الإداري والتربوي.

ولم تتوقف المعارك إلا بعد سنة 1934م بعدما أصيب الثوار بخسائر فادحة نتيجة الجفاف الذي ضرب مناطقهم، وتمكن الكفاح الشعبي المسلح من التصدي للمستعمر وإلحاق خسائر جسيمة بين صفوفه على مستوى الأفراد والمعدات حيث تمكنت المقاومة المسلحة من تأخير احتلال الفرنسيين الشامل للبلاد حتى 1934م.

كان مركز ثقل المقاومة في هذه المرحلة بأدرار، تيرس، الصحراء الغربية وبعض أحواز الحوض، وكان لأبناء الشيخ ماء العينين و أمير أدرار سيد أحمد ولد عيده ولأغلب قبائل الساحل الدور الأكبر فيها، غير أن بعض أحداث المرحلة قد أربك المقاومة وحدّ من فاعليتها في مراحل مختلفة من ذلك مثلا:

- ❖ انشغال الشيخ الهيبة ببعض الرهانات في المغرب في 06 ماي 1912 ومعاركه مع الفرنسيين في الشمال.
- ❖ أزمة القيادة في إمارة آدرار واكراهات انتجاع القبائل.
- ❖ ظروف الحرب العالمية الأولى.

- ❖ تشديد الرقابة على استيراد الأسلحة.
- ❖ انتشار مرض الحمى الصفراء في العديد من المناطق الموريتانية.

وعليه يمكن القول أن المعارك التي قام بها رجال المقاومة الموريتانية لو قدر لها تنظيم القيادة وتوحيد الجهود لكانت نتائجها أكثر وأحسن.